فلسفة اللغة والمبدأ الحواري عند باختين

عبد القادر بوزيده
جامعة الجزائر

في مقدّمة وضعها للترجمة الفرنسية لكتاب «باختين» حول فلسفة اللغة، كتب رومان ياكبسون يقول: «إنّ هذا الكتاب يستبق المنجزات الباهرة الحالية في مجال علم الاجتماع اللغوي، وهو بالخصوص يتقدّم البحوث السيميائيّة الراهنة ويُعيّن لها مهام جديدة ضخمة. إن «جدلية العلامة»، وبالخصوص العلامة اللغويّة التي يدرسها الكِتاب لا زالت تحتفظ، أو هي بالأحرى «تكتسب من جديد قيمة ايحائيّة كبيرة في ضوء الجدل السيميائي الراهن»(1).

يشهد على هذا، الاهتمامُ الكبيرُ المتزايد الذي يوليه اللسانيّون ودارسو الأدب للمدرسة الباختينية إلى درجة أنّ أحد أهمّ النقاد المعاصرين أو الأكثر اشتهارا، وهو تودوروف، قد أطلق على الاتجاه النقدي الذي ارتضاه لنفسه حديثا، بعد أن سلخ من عمره دهرا في الدراسات الحايثة، اسم «النقد الحواري» (La critique dialogique).

لا شكّ أنّ الاتجاهات المختلفة في دراسة النصوص الأدبيّة تنطلق في حقيقة الأمر من تصوّر معيّن للُّغة، ظاهر أو مضمر؛ ونحن نعرف العلاقة الوطيدة بين العديد من الدراسات النقديّة والسيميائية الحديثة من جهة، والدراسات اللسانيّة المتأثرة بمدرسة دوسوسير والمدارس المتفرّعة عنها من جهة أخرى. لذا سنركّز في هذه المداخلة على النظريّة اللغويّة عند باختين وسنلامس ملامسة خفيفة امتداداتها في مجال الدراسات الأدبيّة ودراسة الخطاب الروائي على وجه الخصوص.

قبل أن يصوغ مقولاته الأساسيّة، بدأ باختين بمجادلة الاتجاهات اللسانيّة الأكثر انتشارا وقتها، لا سيّما الاتجاهين اللذين أطلق عليهما تسمية: «النزعة الموضوعيّة المجرّدة» (L'objectivisme abstrait) و«النزعة الذاتيّة الفردية» (Le subjectivisme individualiste):

– ترى «النزعة الموضوعية المجرّدة» التي يمثّلها أساسا دو سوسير، أنّ المركز المنظّم لكلّ الظواهر اللغويّة، والذي يجعل منها موضوعا لعلم محدّد، يوجد في *النظام اللغوي* (Système linguistique)، أي نظام الأشكال الصوتيّة والنحويّة والمعجميّة. وإذا كان كلّ تلفّظ ظاهرة فريدة من نوعها ولا يمكن تكرارها، فإنّه يحتوي رغم ذلك على عناصر متماثلة مع عناصر من تلفّظات أخرى داخل مجموعة بشريّة معيّنة. هذه السّمات المتماثلة النمطيّة بالنسبة لكلّ التلفظات، هي التي تحقّق وحدة لغة معيّنة، وتجعل فهمها من متكلمين ينتمون إلى المجموعة نفسها أمرا ممكنا. أمّا الكلام الفردي، الذي تحكمه عوامل عارضة يتعذّر تحديدها، فلا يمكن أن يكون موضوعا لعلم اللغة. وهكذا ترى «النزعة الموضوعية المجرّدة» أنّ النظام اللغوي مستقلّ تماما عن أفعال الابداع الفردي، وعن أيّ مقصديّة فرديّة. لهذا تستبعد اللسانياتُ، بمفهوم دو سوسير، الأسلوبية من اهتماماتها.

والقوانين التي تحكم النظام الداخلي للّغات، بالنسبة لهذا الاتجاه، هي قوانين محايثة وخصوصيّة. وهي، على عكس القوانين الايديولوجيّة (المرتبطة بالعمليّات المعرفيّة والابداع الأدبي والفنّي إلخ..)، لا ترتدّ إلى الوعي الفردي. وإذا كانت اللغة، باعتبارها مجموعة من الأشكال، مستقلّةً عن أيّ نشاط فردي ابداعي، فهي منتوج عمل جماعي. إنّها ظاهرة اجتماعية. وهي لذلك، مثل أيّ مؤسسة اجتماعية، نمطيّة وملزمة للأفراد. وأن أفعال الكلام الفرديّة تشكّل، بالنظر إلى النظام اللغوي، مجرّد تلوينات أو تنويعات عارضة بل تحريفا لتلك الأشكال المنمّطة. لكن النظام اللغوي الوحيد يتبدّل ويتطوّر في خضمّ عمليّة التطوّر التاريخي لمجموعة لغويّة معيّنة. وبعبارة أخرى، فإنّ للغة تاريخا. وإن أفعال الكلام الفرديّة بالذات هي التي تفسّر ذلك التغيّر التاريخي للأشكال اللغويّة. لكن هذا التغيير بصفته تلك هو، من منظور النظام اللغوي، عملية غير منطقيّة (Irrationnelle)، بل لا معنى لها. فبين منطق اللغة باعتبارها نظاما من الأشكال، ومنطق تطوّرها التاريخي لا توجّد أيّة علاقة. «إن الظاهرة السنكرونية كما يقول دو سوسير، لا علاقة لها بالظاهرة الدياكرونية». فالتاريخ إذن هو مجال لا يحكمه منطق (Irrationnel)، وهو يشوّه النقاء المنطقي الذي يميّز النظام اللغوي.

– في مقابل هذا الاتجاه، نجد «النزعة الذاتية الفرديّة» التي لا تأخذ بعين الاعتبار إلاّ الكلام (Parole)، فهو وحده الموجود. ويرى هذا الاتجاه هو أيضا أنّ فعل الكلام ظاهرة فرديّة؛ لهذا يحاول تفسيره بالعودة إلى السيكولوجيّة الفرديّة للشخص المتكلّم. وإذا كانت السيكولوجيّة الفرديّة هي مصدر اللغة، فإنّ قوانين التطوّر اللغوي إذن هي قوانين سيكولوجية. وهكذا يرى فوسلر (Vossler)، وهو الممثل الأساسي لهذا الاتجاه، أنّ العوامل المحدِّدة، بصورة أو بأخرى للظواهر

اللغويّة (العوامل الفيزيائية أو الاجتماعية أو السياسية) لا تكتسي دلالة مباشرة بالنسبة للّساني: إن ما يهمّ اللساني هو المعنى الفنّي لظاهرة لغويّة ما. بل إنّ حقيقة اللغة هي حقيقة شعريّة، فنيّة: ««إنها الجميل المقترن بمعنى». إنّ **حقيقة *اللغة الأساسيّة* هي *فعل الابداع الفردي المجسّدُ في الكلام*.** وهذه الفكرة نجدها عند فيلسوف الجمال الايطالي «كروتشه» الذي كان يعدّ اللغة «تعبيرا»؛ لذا، فإنّ اللسانيات، باعتبارها علم التعبير، تتطابق مع علم الجمال. والتفرّد الأسلوبي اللغوي هو وحده الذي له وجود تاريخي، وهو وحده المُنتِج. خلال عملية التلفّظ يحصل التطوّر اللغوي الذي تُكتَم أنفاسُه ويُجَمّدُ فيما بعد بواسطة الشكلنة النحويّة. إنّ أيّ ظاهرة نحويّة كانت في البداية ظاهرة أسلوبيّة. ومن هنا أسبقيّة الأسلوبي على النحوي كما يرى «فوسلر».

لكن ما هي حقيقة الظاهرة اللغويّة؟ التلفظ أم النظام اللغوي؟ وما هو الشكل الحقيقي للوجود اللغوي؟ التطوّر أم الثبات؟ يطرح باختين هذه الأسئلة ويوجّه انتقادات جوهرية وتفصيلية إلى كلا الاتجاهين:

في جداله مع «النزعة الموضوعية المجرّدة» يركّز باختين على انتقاد مقولة النظام اللغوي الثابت. *فالنظام السنكروني **اللغوي** في نظره وهم*، واللغة في حالة تطوّر دائما، وهي لا توجد أبدا، وفي أي لحظة من لحظات وجودها، في حالة توازن مطلق، وهو أمر يتفق عليه اللغويّون.

ثم أنّ المتكلم إنّما يستخدم اللغة لحاجاته التلفظية الملموسة، من أجل توصيل رسالة ما لا من أجل احترام الشكل اللغوي النمطي. والمتكلّم لا يهمّه الشكل اللغوي باعتباره اشارة (Signal) ثابتة مساوية لذاتها في كلّ الأحوال، بل باعتباره علامة (Signe) متبدّلة مرنة تخضع لقصديّة المتكلّم. والشيء نفسه بالنسبة للمتلقي:

فالمسألة الأساسية في عملية فكّ الشفرة اللغويّة (Décodage) لا تتمثل بالنسبة إليه في *التعرّف* (Identification) على الشكل المستعمل بل *فهمه* في سياق ملموس محدّد؛ فهم دلالته في ملفوظ معيّن. من هنا، فإنّ المتلقّي هو أيضا يعتبر الشكل اللغوي المستعمل *علامة* متغيّرة مرنة، وليس *اشارة* ثابتة لا تتبدّل. لذا يجب ألاّ نخلط بين عملية *الفهم* وعملية *التعرّف*. إننا نفكّ شفرة العلامة، أي نفهمها؛ لكننا نتعرّف على الاشارة. فالاشارة وحدة ذات معنى قارّ ثابت لا يتبدّل؛ وهي لا تعوّض أيّ شيء، ولا ترمز إلى أيّ شيء، ولا تعكس أيّ شيء.

إن اللغة خلال استعمالها الملموس لا تنفصل عن محتواها الايديولوجي والمتعلّق بالحياة. فإذا فصلنا اللغة، بطريقة مجرّدة، عن محتواها الايديولوجي، كما يفعل بعض ممثّلي «النزعة الموضوعية المجرّدة». فإنّنا لن نجد علامات حيّة، بل مجرّد اشارات جامدة. لقد انطلق هذا الاتجاه في اللسانيات من الفيلولوجيا التي كانت تركّز على دراسة اللغات الميّتة في تفكيرها حول اللغة، وكان هدفها التعرّف وليس الفهم. لذا كان هذا الاتجاه اللساني يدرس اللغات الحيّة كما لو أنّها ميّتة. وقد قاد هذا التفكير اللغوي ذو الطابع الشكلي - المنهجي إلى اتخاذ موقف محافظ من اللغات الحيّة شبيه بموقف الأكاديميات، مناهض لأي تجديد لساني. هذه المقاربة لا تساعد على تحليل أشكال التلفّظ مثل التلفظ الفنيّ الأدبي. وبالفعل فإذا نحن حبسنا الأثر الأدبي في إطار واحدية اللغة باعتبارها نظاما، وإذا درسناه باعتباره وثيقة لغويّة فقد قوّضنا دراسة أشكاله في الإطار العام للأدب. وهي المسألة التي تصدّى لها فيما بعد «يوري لوتمان» وحاول حلّها من خلال صياغة مفهوم «نظام النمذجة الثاني» (Système de modélisation secondaire).

إن نهج «النزعة الموضوعية المجرّدة» هذا يجعل الشكل اللغوي عنصرا معزولا بصورة اعتباطيّة عن كليّة الكلام، عن كليّة التلفّظ النشيطة. ومن المؤكد أنّ هذا

النهج يمكن أن يكون مشروعا إذا كان مسخّرا لخدمة أهداف لسانيّة محدّدة. لكن «النزعة الموضوعية المجرّدة» تخلع على الشكل اللغوي المجرّد وجودا فعليّا خاصا، وتجعل منه عنصرا قابلا للعزل، له وجود تاريخي مستقلّ. بهذا يصبح تاريخ اللغة عبارة عن تاريخ للأشكال اللغوية المعزولة (الصوتية والصرفية إلخ...) التي تعيش بمعزل عن النظام في مجمله، وخارج أيّ احالة على التلفّظ الملموس.

ويؤكد باختين أنّ اللغة باعتبارها نظاما من الأشكال يحيل إلى معيار (Norme) ليست أكثر من عملية تجريدية لا يمكن البرهنة عليها نظريّا والتحقّق منها عمليّا إلاّ بالنسبة للغات الميّتة. وهذا النظام لا يمكن اعتماده قاعدة لفهم وتفسير الأفعال اللغويّة الحيّة المتطوّرة؛ بل إنه على العكس يبعدنا عن حقيقة اللغة هذه وعن وظائفها الاجتماعيّة. وهكذا فإنّ «النزعة الموضوعية المجرّدة» تخطئ الموضوع الحقيقي لدراسة اللغات الحيّة؛ وهي أنسب لدراسة اللغات الميّتة.

أمّا الاتجاه الثاني المقابل، أي اتجاه «النزعة الذاتية الفردية» الذي لا يعترف إلا بالكلام الفردي، ويحاول تفسير فعل الكلام بالعودة إلى الحياة السيكولوجيّة للفرد المتكلّم، فقد تعرّض هو أيضا لسهام النقد من باختين الذي يؤكد على العكس أن السيكولوجيّة الفرديّة لا يمكن أن تنمو خارج الايديولوجيا، أي خارج المجتمع.

إن كلّ منتوج ايديولوجي يحيل ويشير إلى واقع، إلى مرجع خارج عنه، أي أنّ كلّ ما هو ايديولوجي لا يمكن إلاّ أن يكون *علامة*(Signe). وكل ما هو ايديولوجي يحتوي على قيمة سيميائية. والعلامة *شيء مادي*، لا توجد باعتبارها جزءا من الواقع فحسب، بل انّها تعكس ذلك الواقع عكسا وفيّا أو تحرفه وتلوّنه (Refracter)، أو تنظر إليه من زاوية خاصة. والعلامة، بالنظر إلى طبيعتها الماديّة (صوت، كتلة

فيزيائية، لون، حركة الجسم ...) هي ذات طبيعية موضوعية؛ لذا يمكن دراستها دراسة موضوعية. إنّ العلامةَ، وكلّ الآثار الناتجة عنها، ظاهرة تنتمي إلى العالم الخارجي. لكن رغم بساطة هذه الحقيقة وبداهتها لا زالت الرؤيا النفسانية، كما يقول باختين، تُموقِع الايديولوجيا داخل الوعي. وهكذا تصبح الايديولوجيا ظاهرة من ظواهر الوعي الفردي؛ أمّا الجانب الظاهر من العلامة فليس سوى غلاف خارجي أو أداة تقنيّة لتحقيق الأثر الداخلي، أي الفهم. لكن الفهم نفسه لا يمكن أن يتجلّى إلا بواسطة العلامة السيميائيّة (بما في ذلك الحوار الداخلي). والفهم هو ردّ على علامات بواسطة علامات. وهو ما يخلق سلسلة ذات طبيعة واحدة (سيميائية) لا تنقطع أبدا ولا تغرق أبدا في عالم داخلي ذي طبيعة لا مادية وغير مجسّد في علامات.

من هذه العلاقة، من هذه العملية التفاعليّة بين وعي ووعي آخر تنجم العلامات في حركة لا تتوقّف. والوعي الفردي نفسه مملوء علامات. والوعي لا يصبح وعيا إلاّ عندما يمتلئ بمضمون ايديولوجي خلال عملية *التفاعل الاجتماعي* وخلالها فقط.

إنّ الوعي الفردي لا يستطيع أن يفسّر أيّ شيء؛ بل إنّه هو لا يستطيع أن يرى النور خارج الوسط الايديولوجي والاجتماعي. إنه ظاهرة سوسيو-ايديولوجية. وأنّ التحديد الموضوعي الوحيد الممكن للوعي هو، في نظر باختين، تحديد ذو طبيعة سوسيولوجية.

إنّ الوعي لا يمكن أن ينبثق من الطبيعة مباشرة (عكس ما تراه المادية الميكانيكية)، والايديولوجيا ليست وليدة الوعي المتعالي. إن الوعي يظهر ويتشكل في العلامات التي أنتجتها مجموعة منظمة خلال علاقاتها الاجتماعية. ويظهر هذا الدور الحاسم للاتصال الاجتماعي بأكبر وضوح في اللغة. فالكلمة التي يتلفظ بها

الفرد هي ناتج التفاعل الحيّ بين القوى الاجتماعيّة. والكلمة التي نتلفّظ بها إنّما نوجّهها إلى مخاطَب معيّن، وستتحدّد طبيعتها بالنظر إلى هذا المخاطَب ووضعيّة الخطاب. إنّ الكلام ودلالة الكلام الذي نخاطب به شخصا ما يختلف بحسب انتماء ذلك الشخص إلى نفس المجموعة الاجتماعيّة أو عدم انتمائه إليها، وبحسب انتمائه إلى سلّم اجتماعي أرقى أو أدنى، وحسب طبيعة ارتباطه بالمتكلّم بواسطة روابط اجتماعيّة. إنّنا لا نحدّث الأب في الأسرة كما نحدّث الأخ أو الأخت أو الأمّ. وأن حديثا نوجّهه إلى أصدقاء تجمعنا بهم روابط خاصة وتجربة حميمة مشتركة لا يعني الشيء نفسه بالنسبة لشخص لا تربطنا به تلك العلاقة نفسها رغم أنّه يتكلّم اللغة نفسها. والواقع أن كلّ كلمة، كما يرى باختين، تحمل وجهين؛ وهي تتحدّد بالنظر إلى كونها صادرة عن شخص وموجّهة نحو شخص. فهي إذن ناتج التفاعل بين المتكلِّم والمخاطَب. ويبدو هنا باختين أحد ملهمي الدراسات الراهنة؛ بل أن تودوروف يذهب إلى القول بأنه المؤسس المعاصر للتداوليّة.

الكلمة باعتبارها علامة يستخلصها المتكلّم من مخزون اجتماعي؛ كما أن تجلّي هذه العلاقة الاجتماعية، خلال عملية التلفّظ الملموسة، تحدّده هو أيضا العلاقات الاجتماعية، وأنّ التفرّد الأسلوبي لفعل التلفظ، الذي يتحدّث عنه أتباع «فوسلر»، هو بالتحديد تجسيد لهذا التفاعل الاجتماعي الذي تقوم عليه *عملية التلفظ الملموسة*. ويؤكد باختين أنّ الوضعيّة الاجتماعيّة المباشرة والمساهمين المباشرين في عمليّة الاتصال يحدّدون الشكل والأسلوب *الظرفي* للتلفظ، هذا ما يحصل عادة في عملية التخاطب اليومي كما بيّن باختين في دراسته عن «الخطاب في الحياة وفي الشعر»؛ أمّا المستويات العميقة لبنية التلفّظ فترتدّ إلى الظواهر الاجتماعية الأكثر عمقا والأكثر دواما التي يخضع المتلفّظ لتأثيراتها. وهذا ما يظهر عادة في

الأشكال والأساليب الأكثر دواما مثلما هو الحال بالنسبة للأجناس أو التيارات الأدبيّة. ونحن عندما نتحدّث عن المحدّدات الاجتماعية لتلك الأشكال والأساليب، فإننا لا نتحدّث عن محدّدات نلصقها من *الخارج* على نتاج النشاط الايديولوجي، بل أن التشكيلات الايديولوجية هي ذات طبيعة سوسيولوجيّة من *الداخل* وبصورة *محايثة*.

إن الوجود الحقيقي للّغة هو التفاعل اللغوي باعتباره ظاهرة اجتماعيّة. هذا التفاعل اللغوي يشتغل اشتغالا خاصا بحسب أنواع الخطاب. لكن كل نوع من هذه الأنواع لا يتحقّق إلاّ في شكل تنويعة خاصة؛ وفي تلك التنويعات تتراكم التغييرات مع مرور الزمن، وتترسّب في الوقت نفسه العادات الجديدة النشيطة في استقبال خطاب الآخر؛ وهي عادات تستقرّ بعد ذلك في شكل تصوّرات لغوية مستديمة في البنى النحويّة. أما التنويعات فتوجد على تخوم النحو والأسلوبيّة.

* * *

وقد خصص باختين العديد من بحوثه لدراسة تجلّي التفاعل اللغوي أو ما أسماه *بالحوارية* في العديد من أشكال الخطاب؛ لكنه ركز جلّ اهتمامه على الخطاب الروائي، ربّما لأنّ الحوارية تظهر في هذا الخطاب بوضوح أكبر إذا ما قارنّاه بأشكال أدبية أخرى، لا سيما الشعر، وتمنحه خصوصيته الأسلوبية.

تتمثل هذه الخصوصية الأسلوبيّة في كون الخطاب الروائي، إذا نظرنا إليه باعتباره كلاّ، هو ظاهرة متعدّدة الأسلوب، متعدّدة اللسان، متعدّدة الأصوات، ويعثر فيها الباحث على وحدات أسلوبيّة *متباينة* حدّدها باختين في: السرد الأدبي المباشر بتنويعاته المختلفة، والتشكيل الأسلوبي (Stylisation) لمختلف أشكال السرد

الشفوي التقليدي، والمكتوب شبه الأدبي مثل الرسائل والمذكرات إلخ.. ومختلف الأشكال التي تميّز خطاب المؤلّف ولكنّها لا تدخل في إطار الفن الأدبي مثل الكتابات الأخلاقية والفلسفية إلخ... وخطابات الشخوص الروائية المفرّدة أسلوبيا.

«هذه الوحدات الأسلوبية *المتباينة* تتمازج عندما تلج عالم الرواية، وتكوّن داخلها نظاما أدبيا *متجانسا* وتخضع للوحدة الأسلوبية العليا للمجموع؛ وهي وحدة لا تعادل أيّا من الوحدات الجزئية التابعة لها». لكن الأسلوبية التقليدية تستبدل موضوع البحث الحقيقي، الذي هو الكلّ الروائي، باحدى جزئياته. وهي طريقة تجعل الدارس لا يلمس خصوصية هذا النوع الأدبي: إنه كما يقول باختين: «يُدَوِّن للبيانو موضوعا سيمفونيا» لا يمكن تجسيده إلا أركستراليّا.

قد يتمّ استبدال موضوع البحث الحقيقي بالتركيز على وصف لغة الروائي (وهو الذي لا يتوفّر على لغة خاصة به أحيانا) عوض تحليل أسلوب الرواية؛ فتصبح فرديّة المتكلّم، وليس طبيعة الجنس الأدبي في تطوّره هي العامل الحاسم في تكوين الأسلوب. وقد يتمّ ذلك الاستبدال بالتركيز على إحدى الوحدات الأسلوبية التابعة للكلّ الروائي والمستقلّة عنه نسبيّا.

هذه الطرق التحليلية غير ملائمة لتحليل أسلوب الكلّ الروائي، بل هي غير ملائمة كذلك عندما يتعلّق الأمر بتحليل هذه الوحدة الأسلوبيّة أو تلك؛ ذلك أنّ هذه الوحدة إذا تمّت دراستها بمعزل عن المجموع، عن الوحدات الأخرى التي تتبادل التأثير معها، فإنّ معناها الأسلوبي يتغيّر، وتتغيّر ماهيّتها الحقيقية داخل الرواية.

لقد صاغت الأسلوبية التقليدية مقولاتها ووضعت مناهجها انطلاقا من الأنواع الشعريّة بالمعنى الضيّق للكلمة؛ فركزت اهتمامها على الأجناس «الأحادية اللسان» و«الأحادية الأسلوب» فقط. وهو تصوّر يرتبط بفلسفة اللغة التي انتقدها باختين

والتي لا ترى سوى قطبين من حياة اللغة هما: نظام اللغة الوحيدة (Langue) والفرد الذي يستعمل هذه اللغة (Parole). وقد تولّدت هذه المقولات والتصوّرات التقييديّة، حسب باختين، في «رحم القوى التاريخيّة الحقيقية المتصلة بالصيرورة اللفظية والايديولوجيّة لبعض الفئات والقوى الاجتماعيّة. وهي قوى توحيد ومركزة الايديولوجيات اللفظية» الساعية إلى فرض رؤية واحدة للأشياء، رؤية الفئات المهيمنة اجتماعيا. وقد تأسست أغلب الأجناس الشعريّة في ظلّ تيّار هذه القوى الجاذبة نحو المركز، الساعية إلى تغليب تلك النظرة الواحدة للأشياء.

أمّا الرواية والأجناس الأدبيّة النثريّة الأخرى فقد تكوّنت، على العكس، في تيّار القوى المضادة للمركزة (Décentralisatrices). ففي مواجهة القمم الاجتماعية الايديولوجيّة الرسمية العاملة على المركزة وفرض الرؤية الواحدة، كان هناك أدب الحكايات المنظومة وأغاني الشارع والأمثال والطرائف الذي يتردّد صداه في الساحات العموميّة والمعارض والحفلات الشعبيّة، حيث لا وجود لأي مركز لساني، وحيث المهرّج يسخر من كلّ اللغات واللهجات. في هذه الأشكال «الدنيا» كان التعدّد اللساني هو النقيض للّغة الأدبيّة الرسميّة؛ وهو في الوقت نفسه موجّه ضدّها بشكل جدالي هجائي ساخر.

تجاهلت الأسلوبيّة التقليديّة هذا الطابع الحواري وظلّت تنظر إلى الأثر الأدبي باعتباره كلاّ مغلقا مستقلاّ لا يفترض وجود شيء ولا تلفّظ خارجه، يلتقي بموضوعه مباشرة دون أن يعترضه في الطريق بينه وبين موضوعه سوى مقاومة ذلك الموضوع. هذه النظرة ينتقدها باختين الذي يرى أنّ الخطاب لا يلتقي بموضوعه بكرا ولا يواجه مقاومة موضوعه فحسب، بل يلتقي به وقد اخترقته الخطابات الأخرى الموجهة نحوه وتركت بصماتها عليه. لهذا فإنّ الخطاب وهو

يتوجّه لموضوعه، يدخل في اللحظة نفسها إلى عالم تلك الكلمات الأجنبيّة عنه، وهي كلمات متفاعلة فيما بينها، ويتسلّل بين تداخلاتها المعقّدة، فينصهر مع البعض، وينفصل عن البعض، ويتقاطع مع البعض الآخر؛ فتتعانق جدلية الموضوع مع الحوار الاجتماعي الدائر حوله، ويصبح الموضوع بالنسبة للروائي الناثر محطّة تلتقي عندها أصوات متعدّدة يتردّد صوت الروائي بينها هو أيضا. في خضمّ هذا التفاعل الحيّ يتحدّد الخطاب ويتفرّد أسلوبيّا.

من جهة أخرى، فإنّ كل خطاب موجّه نحو جواب، وهو بالضرورة يتأثر، في الطريقة التي يتشكل بها، بالجواب والردّ المرتقب. والمتكلّم هنا يبني خطابه فوق أرض أجنبيّة عنه، ومن خلال الخلفيّة الادراكية للشخص الذي يتحاور معه.

إن الروائي، وهو يتعامل مع هذه اللغات والأصوات المتعدّدة، لا يستأصل نوايا الآخرين ولا يحطّم العوالم والرؤى التي تتبدّى من وراء تعدّد الأصوات وتعدّد اللغات؛ إنه يدخلها عالمه الروائي مسكونة بنوايا الآخرين ويسخّرها في الوقت نفسه لخدمة نواياه الخاصة. هنا تكمن خصوصية الجنس الروائي وتميّزه؛ وهي خصوصية تتطلب أسلوبية مناسبة لا يمكن، في رأي باختين، إلاّ أن تكون أسلوبيّة سوسيولوجيّة.

ولا يعني هذا أن الخطاب الشعري غير اجتماعي، في نظر باختين، بل هو كذلك رغم أنّ الشاعر، وهو يتعامل مع الكلمة يحاول أن ينسى تاريخها ويستلمها بكرا مفرغة من نوايا الآخرين ليشحنها بنواياه الخاصة. لكن الأشكال الشعرية تعكس عمليات اجتماعية أكثر دواما تمتدّ على قطاعات زمنيّة واسعة من الحياة الاجتماعيّة، بينما يتفاعل الخطاب الروائي، بطريقة جدّ حساسة، مع أبسط التغيّرات التي تطرأ على المناخ الاجتماعي، فتتسلّل إليه اللغات واللهجات

الاجتماعيّة المختلفة المشحونة ايديولوجيّا وتتراتب، وتصبح لغة الروائي لهجة بين تلك اللهجات تتحاور وتتفاعل معها(2).

ولا بدّ قبل انهاء هذه المداخلة من تقديم بعض الأمثلة التي تجسّد هذه الحوارية في الخطاب. وقد كنت أنوي الاشتغال على بعض النصوص الروائيّة الطويلة مثل روايات الطاهر وطّار «الحوات والقصر» و«الزلزال» الخ... وتحليل التعدّد الصوتي واللغوي فيها وتسخير الكاتب أحيانا كثيرة لغة الأخرين لخدمة نواياه الخاصة. لكن ضيق المقام جعلني أكتفي ببعض النصوص القصيرة مثل هذا النصّ المأخوذ من رواية «ريح الجنوب» لعبد الحميد بن هدوقة.

«قرية كاملة اهتزت من أقصاها إلى أقصاها (...) بعض القرويّين انتظروا خروج *الدجال والدابة ونزول* عيسى **والشمس تطلع من الغرب** ... كل شيء جاهز لقيام الساعة ***بفضل رقصة فولكورية***».

في هذه الفقرة يسرد الكاتب حدثا على الطريقة الملحمية: «قرية كاملة اهتزت [...] بعض القرويين انتظروا»؛ ثم يدرج خطاب القرويين بطريقة متستّرة وقد أسلبه المؤلّف «خروج الدجال [...] ونزول عيسى»؛ لكن تجيء بعدها مباشرة جملة «والشمس تطلع من الغرب» وهي من كلام القرويّين، لكن الكاتب لم يؤسلبها بل يبدو كأنه نقلها كما هي؛ ذلك أن بنيتها تختلف عن بنية الجمل السابقة «خروج [...] نزول ...»، فالكاتب لم يقل «طلوع الشمس من الغرب» على منوال الجمل السابقة بل وضع جملة اسميّة كما تجيء الجمل عادة في الحديث الشفهي. ثم يتبع ذلك جملة «كل شيء جاهز لقيام الساعة» وهو كلام يمكن أن ننسبه للقرويين والرأي العام القروي، كما يمكن أن يكون كلام الكاتب الذي يلخص كلام القرويين السابق. ثم يجيء بعد ذلك تعليق الكاتب على كلام القرويّين في إطار الجملة نفسها «بفضل رقصة فولكورية» بحيث لا نستطيع فصله من وجهه نظر نحويّة عن

باقي الجملة؛ تعليق يبيّن عدم التناسب بين السّبب والنتيجة، وهو انتقاد مبطن لكلام أهل القرية لكنه انتقاد لا يمكن أن نميّز، من الناحية النحوية، بينه وبين كلام أهل القرية. ولو اكتفينا بالأدوات النحويّة الخالصة لما استطعنا أن نميّز بين لغة الكاتب ولغة القرويّين والحوار الدائر بينها. إنه الشكل الهجين الذي يمزجُ لغتين اجتماعيتين في ملفوظ واحد، لغتين تعبّران عن ايديولوجيتين وأفقين سيميائيين وخلاقيّين ووعيين اجتماعيّين مختلفين.

وقد تضيق المسافة أحيانا بين لغة الكاتب واللغات الأخرى التي تتردّد داخل نصّه؛ بل قد يضع الكاتب مسافة بينه وبين اللغة ويعبّر عن قصديّته بلغة الأخرين، خوفا من التورّط في اللغة والانغماس في وحل مشجياتها ومؤثراتها المصطنعة. لكأن الكاتب ليست له لغته الخاصة، ولكنه يصوغ أسلوبه الخاص من خلال اللعب بلغات مجموعات اجتماعية وايديولوجيّة مختلفة تنعكس فيها ومن خلالها قصديّته الخاصة كما هو الحال في أعمال رابليه التي حلّلها باختين.

في الآونة الأخيرة نشرت إحدى الصحف الجزائرية مقالا يردّ فيه صاحبه على مقال كتبه رئيس تحرير جريدة الخبر الأسبوعي، الأستاذ عبد العزيز بوباكير، يقول صاحب المقال: «يبدو أن القصيدة الديوان أو الديوان القصيدة الذي نزل السوق خلال شهر مارس المنصرم تحت عنوان: «سيف الحجاج بين نار الدمار ورياح الوئام» لصاحبه الوزير الشاعر أبى جرّة سلطاني بدأ يملأ الدنيا ويشغل الناس. ولا أدلّ على ذلك من الحملة المسعورة التي شنّها ويشنّها عليه الشويعريون والنّويثريون، شأنه شأن أبي الطيّب المتنبّي الذي كثر حسّاده ومناوئوه من الشعرآء والأدعياء حين قال فيهم:

أفي كلّ يوم تحت ضبني شويعر ضعيــف يقاويني قصير يطاول

وهو موقف ينطبق على شاعرنا «أبو جرّة سلطاني». ومن آخر مناوئيه النويثر عبد العزيز بوباكير صاحب مقال: «الوزير الشاعر والنومنكلاتورا» (...) الذي شنّ حملة أحسن إليه فيها من حيث أراد الاساءة [...] وذهب الحقد بهذا المناوئ إلى حدّ الزعم أنّ أبا جرّة قد انتهى كشاعر لانصراف شيطان شعره عنه بعد أن بالغ في مدح سياسة الوئامين .. المدني «والوطني [...] ولجهله بمدلول المصطلحات مدح السيّد الوزير من حيث أراد ذمّه (اذ) لم يتردّد أن زعم أنّ «الشاعر الوزير امتنع عليه قول الشعر ونضب فيه معين الأخيلة وجفّت عنده القريحة وخانه الكشف الذاتي حين عاد إلى نثر الحياة ففقدت لهجته وهجها وبريقها وحرارتها».

«وأني أسألك يا صاحب المقال متى كان ذلك؟ هل بعد العودة إلى نثر الحياة أم قبلها؟ وقد أجبت بقولك: «إن الوزير الشاعر حين عاد لنثر الحياة فقدت لغته وهجها وبريقها وحرارتها» فأنت بذلك تقرّ بأنّ لغته الشعرية ذات وهج وبريق وحرارة ..! وإذا كان الأمر كذلك فلماذا تنفى عنه الشاعرية وأدواتها! اللهم إلاّ إذا كنت متحاملا مكابرا!»

كلام من هذا؟

إن هذا الكلام موضوع كلّه على لسان الشخصيّة التي توجه، بأسلوب جدالي، نقدها إلى مقال الأستاذ عبد العزيز بوباكير، عدا بعض الاستشهادات التي ضمّنها الناقد مقالته، وهو ما يُدخل بعدُ التعدّد اللغوي بشكل ظاهر. هذا المقال ينافح فيه صاحبه عن الوزير الشاعر، ويبلغ في ذلك حدّ المبالغة أحيانا. كما يوجّه سهام النقد إلى مناوئيه، فيسمّيهم «الشويعريون» و«النويثريون» و«الحساد» و«الأدعياء»؛ ويطلق على الأستاذ عبد العزيز بوباكير لقب «النويثر» و«الحاقد المتحامل المكابر» و«الجاهل بمدلول المصطلحات» الذي مدح الوزير من حيث أراد ذمّه. ولو نظرنا إلى هذا المقال في ضوء العلامات النحويّة لفهمناه على هذا النحو.

لكن هذا المقال هو في حقيقة الأمر مقال كتبه الأستاذ عبد العزيز بوباكير، أنتحل فيه شخصيّة أخرى *وأقتبس منها لغتها* ليشحنها، جداليا، من خلال اعتماد الصيغ المبالغ فيها، بمدلول هو النقيض للمدلول الظاهري لتلك اللغة وليُعبّر بها عن قصديته الخاصة. *هذه القصدية ليست لها في المقال لغتها الخاصة*، إنها تستعير لغة الآخر وتتجادل معها من خلال المحاكاة الساخرة، فتتداخل اللغتان والصوتان في لغة واحدة تعني الشيء ونقيضه، وتعبّر من خلال العلامة الواحدة المتصارع حولها عن موقفين اجتماعيّين وايديولوجيّتين مختلفتين؛ لكن صاحب المقال الحقيقي، خوفا من التورّط في وحل اللغة الوثوقيّة ذات الصوت الواحد يضع، مثل رابليه، رغم أنه كتب مقالا وليس رواية، يضع مسافة بينه وبين اللغة فيعبّر، بلغة الآخرين عن قصديته الخاصة. ونحن لا يمكن لنا أن نكتشف تلك القصدية الخاصة دون النظر إلى النصّ في إطار السياق الخاص الذي جاء فيه؛ ولو فعلنا غير ذلك واعتمدنا الدراسة النحويّة المحايثة وحدها لأوّلنا المقال كما يبدو في ظاهره على أنه مقال موجّه لنقد طروحات الأستاذ عبد العزيز بوباكير وقد تحوّل إلى حطيأة معاصر يهجو نفسه.

الهوامش:

(1) – Roman Jakobson, Préface, in Mikhail Bakhtine, Le Marxisme et la philosophie du langage, traduit par Marina Yaguello, Ed. de Minuit, Paris, 1979, p. 8.

(2) – Cf. Mikhail Bakhtine, Esthétique et théorie du roman, traduit par Daria Olivier, Ed. Gallimard, 1978.

(*) – استفدت في بعض فقرات هذه المقالة من الترجمة التي وضعها الأستاذ محمد برّادة لدراسة باختين حول الخطاب الروائي.